الباب الثانى

حياة البخارى العامة

« محمد بن اسماعيل كان أمة من الأمم
دينا فاضلا يحسن كل شىء »

العجلى

obeikandl.com

obeikandl.com

مكانة البخارى فى الصلاح والورع

ان سر نبوغ البخارى ووصوله الى المكانة العلمية الفريدة انما هو حبه لله ورســـــوله ولو لم يكن محبا لرسول الله صلى الله عليـــه وسلم وتعاليمه • لما استطاع أن يصل الى هذه المكـــانة العلمية فى الأحـــاديث فمن المعلوم أن طالب العلم لا ينبغ النبوغ القـــوى الا فيما حبب الى نفسه وانشرح له صدره •

وتعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم كلها فياضـــة بالدعـــوة الى التقوى ومكارم الأخلاق •

ولا يكون مبالغا من يقول بأن البخارى رحمه الله اتخذ الرســـول قدوته • وطبق تعاليمه على نفسه فاجتمعت فيه كل المعانى الكريمة •

فهو مكثر العبادة ، يصلى فيسلم وجهه وقلبه لله وينصرف بكليتـــه اليه فى خشوع المؤمن السعيد بعبادته وقراءته •

عن محمد بن أبى حاتم الوراق قال : دعى محمد بن اسماعيل الى بستان بعض أصحابه فلما حضرت صـــلاة الظهر صلى القـــوم ثم قام للتطوع فأطال القيام فلما فرغ من صلاته رفع ديل قميصه فاذا زنبور قد أبره فى ستة عشر موضـــعا وقـــد تورم من ذلك الجســـد وكان آثار الزنبور فى جسده ظاهرة • فقال له بعضهم : كيف لم تخرج من الصلاة فى أول ما أبرك ؟

فقال : كنت فى سورة فأحببت أن أتمها وعن نسج بن سعيد قال(١):

---

(١) فى الطبقات وتاريخ بغداد واما فى المقدمة « مقسم » •

كان محمد بن اسماعيل البخارى اذا كان أول ليلة من رمضان يجتمع اليه أصحابه فيصلى بهم ويقرأ فى كل ركعة عشرين آية وكذلك الى أن يختم القرآن ، وكان يقرأ القرآن فى السحر فى كل ثلاث ليال • وكان يختم بالنهار فى كل يوم ختمة ويكون ختمه عند الافطار فى كل ليلة ويقول عند كل ختم دعوة مستجابة (١) ، وهذا الاتصال الدائم بالله عن طريق العبادة أضفى عليه حسن المعاملة مع الناس فكان شديد الورع فى معاملته يخاف الشبهات •

قال أبو سعيد « بكر بن منير » : كان حمل الى محمد بن اسماعيل بضاعة انفدها اليه فلان اجتمع بعض التجار اليه بالعشية ، فطلبوها بربح خمسة آلاف درهم فقال لهم : انصرفوا الليلة فجاءه من الغد تجار آخرون فطلبوا منه تلك البضاعة بربح عشرة آلاف درهم فردهم وقال : انى نويت البارحة أن أدفع الى الذين طلبوا منى أمس بما طلبوا أول مرة وقال : لا أحب أن أغير نيتى (٢) ، وعن عبد الله بن محمد الصيارفى : كنت عند محمد بن اسماعيل فى منزله فجاءته وأرادت دخول المنزل فعثرت على محبرة بين يديه فقال لها : كيف تمشين ؟ قالت : اذا لم يكن طريف كيف أمشى ؟ فبسط يديه وقال : اذهبى فقد أعتقتك • فقيل له يا أبا عبد الله أغضبتك ؟ فقال : أرضيت نفسى بما فعلت (٣) •

فما أروع هذا السمو فى المعاملة ، شعر احساسه الدينى المرهف بأنه أغضب الجارية باعتراضه التأنيبى الرقيق اليها ، فكفر عن ذلك باعتاقها حتى يرضى نفسه الطيبة النقية ويقول : وراقه سمعته يقول لأبى معشر الضرير : اجعلنى فى حل يا أبا معشر فقال : من أى شىء ؟ فقال : رويت حديثا يوما عنك • فنظرت اليك وقد أعجبت به وأنت تحرك

---

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ١١ •
(٢) طبقات الشافعية ج ٢ ص ١٠ •
(٣) مقدمة الفتح ج ٢ ص ١٩٥ لابن حجر •

رأسك ويديك فتبسمت من ذلك قال : أنت فى حل ــ يرحمك الله يا أبا عبد الله (١) .

وعن وراقة : سمعته يقول ما اغتبت أحدا قط منذ علمت أن الغيبة حرام .

قال بكر بن منير : سمعت محمد بن اسماعيل البخارى يقول : انى لأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبنى انى اغتبت أحدا (٢) . وسمعه وراقه يقول : لا يكون لى خصم فى الآخرة فقال له : ان بعض الناس ينقمون عليك التاريخ ويقولون فيه اغتاب الناس فقال : انما روينا ذلك ولم نقله من عند أنفسنا . وقد قال : النبى صلى الله عليه وسلم بئس أخو العشيرة (٣) ويقول ابن حجر : كان البخارى فى كلامه فى الرجل توق زائد وتحر بليغ فمن تأمل كلامه فى الجرح والتعديل فان أكثر ما يقول : سكتوا عنه ، فيه نظر ، تركوه ، ونحو هذا .

وقل أن يقول : كذاب أو وضاع وانما يقول كذبه فلان « ورماه فلان » يعنى بالكذب وهذا من شدة ورعه .

وعن الذهبى : أبلغ تضعيفه فى المجروح منكر الحديث . ويقول البخارى : (٤) كل من قلت عنه منكر الحديث فلا تحل الرواية عنه ، وأكسبه ورعه التحرى فى الدقة والأمانة العلمية قال وراقة سئل عن خبر حديث فقال : يا أبا فلان ترانى أدلس وقد تركت عشرة آلاف حديث لرجل فيه نظر وتركت مثلها أو أكثر منها لغيره لى فيه نظر ؟

وقد نفى النوم عن عينيه نفس أبيه مشغولة بالعلم والعبادة ومكارم الأخلاق ، قال وراقة : اذا كنت معه فى سفر يجمعنا بيت واحد الا فى القيظ ، فكنت أراه يقوم فى الليلة الواحدة خمسة عشرة مرة الى عشرين

---

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٣ .
(٢) الطبقات ج ٢ ص ٩ لابن السبكى .
(٣) البداية والنهاية ج ١١ ص ١١٩ .
(٤) الطبقات ج ٢ ص ٩ لابن السبكى .

مرة • وفى كل مرة يأخذ القداحة فيرى نارا فى يـده ويسرج ويخـرج أحاديثه فيعلم عليها ثم يضـع رأسه • فقلت : انك تحمل على نفسـك كل هذا ولا توقظنى ؟ فقال : أنت شاب فلا أحب أن أفسـد عليك نومك وكان يصلى وقت السحر ثلاث عشرة ركعة ويوتر منها بواحدة • وكـان معه شىء من شعر النبى صلى الله عليه وسلم (١) •

وهذه الحالة النفسية من قيامه مرات بالليل تمثـل مـدى اهتمامه بالعلم وتركيز الذهن فيه فكلما تذكر شيئا سجله وهـذا خلق العلمـاء المنصرفين للتأليف والعلم ، وما أكرم خلقه وشعوره فى معاملته لتابعـه وراقه فى محافظته على راحته فلا يقلقه ويؤثر أن يصلح المصباح لنفسه وما أتقاه وأصفى نفسه فقبل أن يبدأ حياته العلمية فى الليـل يصفى نفسه بركعات تقربا الى ربه فى وقت الصفاء فى السحر وهـذا هو نهج المحدث الذى يعيش مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم •

كرم البخارى وزهده

ورث البخارى عن والده ثروة ضخمة مطهرة فلم يستغلها فى التنعم والتلذذ بالملذات الدنيوية بل عاش متقشفا زاهدا فى الترف الدنيـوى ، أكثر ما ينعم به فى طعامه أن يأكل مع الخبز سكرة ولم يكن هذا التقشف كاذبا وطريقا خداعا الى الشح بالمال وادخاره كما يتوارى فيـه بعض الناس وانما كان التقشف الصادق « ودليله الزهد فى المال وانفـاقه فى أوجه البر والاحسان مؤمنا بقوله تعالى : « وما عند الله خير وأبقى » « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » •

يقول البخارى : كنت أستغل فى كل شهر خمسمائة درهم• فأنفقها فى الطلب وما عند الله خير وأبقى (٢) •

---

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٣ •
(٢) الطبقات ج ٢ ص ١١ •

وقال : وراقه كنا بفربر وكان أبو عبد الله يبنى رباطا (١) مما يلى بخارى فاجتمع بشر كثير يعينونه على ذلك وكان ينقل اللبن فكنت أقول : يا أبا عبد الله انك تكفى ذلك ، فيقول هذا الذى ينفعنى ، وكان ذبح لهم بقرة فلما أدركت القدور دعا الناس الى الطعام فكان معه مائة نفس أو أكثر ولم يكن علم انه يجتمع ما اجتمع وكنا آخرجنا معه من « فربر » خبزا بثلاثة دراهم وكان الخبز إذ ذاك خمسة أمنان بدرهم فألقيناه بين أيديهم فأكل جميع من حضر وفضلت أرغفة صالحة ، وكان قليل الأكل جدا كثير الاحسان الى الطلبة مفرط الكرم (٢) ويتبين من بين سطور هذا القول مشاركته فى عمل الخير بالمحافظة على ثغور المسلمين وكرمه المفرط فاستحق اكرام الله له بوضع البركة فى طعامه .

والبخارى دائما لا يؤثر الدنيا على الآخرة ولا يرضى أن يبيع دينه بدنياه فهو بعيد النظر فى خطواته يضحى بالدنيا الفانية من أجل الآخرة الباقية ، يقول وراقة عنه : انه ورث من أبيه مالا جليلا وكان يعطيه مضاربة (٣) فقطع غريم خمسة وعشرين ألفا فقيل له استعن بكتاب الوالى فقال : ان أخذت منهم كتابا طمعوا ولن أبيع دينى بدنياى ثم صالح غريمه على أن يعطيه كل شهر عشرة دراهم وذهب ذلك المال كله (٤) واستبدل البخارى أمواله أضعافا مضاعفة فى سجل الحسنات وكان مصير هذه الثروة الجليلة التى ورثها أن أقرضها لله ابتغاء وجهه ورضوانه وأصبح غنيا برضاء الله له . وبما هداه اليه من ثروة علمية قال عمر بن حفص الأشقر : كنا مع محمد بن اسماعيل بالبصرة نكتب الحديث ففقدناه أياما : فطلبناه فوجدناه فى بيت وهو عريان وقد نفد ما عنده ولم يبق شىء فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوبا وكسوناه

---

(١) فى مختار الصحاح الرباط ما تشد به الدابة والرباط أيضا ـ المرابطة وهى ملازمة الثغور ضد العدو . ورباط الخيل مرابطتها .

(٢) ترجمة البخارى ص ١٣ ط المنيرية .

(٣) ضاربة فى المال وهى القراض « مختار الصحاح » .

(٤) مقدمة فتح البارى جـ ٢ ص ١٩٤ .

ثم اندفع معنا فى كتابه الحديث (١) • والكريم قريب من الله وهـو معه يرزقه من حيث لا يحتسب تأخرت نفقته حتى جعـل يتنـاول حشيش الأرض فلما كان فى اليوم الثالث يقول : أتانى رجل لا أعرفه فأعطـانى صرة فيها دنانير (٢) •

ووطد البخارى نفسه على أن يكون فى ذروة الثقاة الأطهار الأبرار بكل ما تشمله التقوى من المعانى السامية النبيلة حتى يكـون ربانيـا يدعو فيستجاب له :

وهذا المنهج الذى رسمه لحياته وطبقه أتم تطبيق كان ينـادى به ويدعو المسلمين اليه ويريد أن يكون كل مسلم متحليـا بالتقـوى التى تؤهله لاسـتجابة الدعاء منه ، ولا ينبغى للمسـلم أن يكـون غير ذلك يقول وراقة قال البخارى : « ماينبغى للمسلم أن يكون بحالة اذا دعـا لم يستجب له » والدعوة الى التقوى والعبادة وتذكر المـوت وحسـن الخلق كانت طبيعته ودعوته التى دائما يدعو اليها حتى فيما أثر عنه من أشعار قليلة قال الحاكم ابو عبد الله (٣) : قرأت بخط أبى على المستملى وأنشد البخـارى :

أغتنم فى الفراغ فضـل ركوع ... فعسى أن يكون مـوتك بغتـه
كم صحيح رأيت من غير سقم ... ذهبت نفسه الصـحيحة فلته

قال وأنشد أيضا :

خالق النـاس بخلق واسـع ... لا تكن كلبـا على النـاس تهر

وقـال :

أن تبـق تفجـع بالأحبة كلهم ... وفناء نفسـك لا أبالك أفجـع

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٢ ص ١٣ •

(٢) الطبقات جـ ٢ ص ١١ •

(٣) الطبقات الشافعية جـ ٢ ص ١٥ ومقدمة الفتح جـ ٢ ص ١٩٦ •

فأشعاره (١) تدعو الى لزوم عدم ضياع الوقت بل ينبغى اشـــغاله بالعبادة وأن يكون المسلم صاحب خلق حســـن يســـلم النـــاس من شره وضرره « وينتفعون بخيره وبره » •

مهارته واستعداده للجهاد

والبخارى الذى اهتم بحفظ الحديث وفهمه اهتم بتطبيـــق ما أمر الله به ورسوله فاتخذ هذا منهجا فى سيرته فكانت حميدة للغاية رائعـــة فى كل جوانبها •

عرف قيمة الجهاد فى الاسلام وشجاعة الرسول صلى الله عليـــه وسلم ومهارته فى الحرب فاتخذه القدوة الحسنة فتعلم استعمال آلات الحرب وأتقن الجهاد ونبغ فى أشق أمور الحرب وأرقاها حينئذ رمـــاه الرمى « وكان فيه الممتاز على غيره بحيث لا يخطىء الهـــدف اذا رمـــاه مرات عديدة » (٢) واهتم بثغور المسلمين الاهتمـــام البالغ ولم يشـــغله العلم عن ذلك وهكذا النفوس الكبيرة كما يقول ابن سينا : لا يشغلها شىء عن شىء والنفوس النقية يبارك الله لها فى وقتهـــا بفضـــل الاخـــلاص والعمل • قال وراق البخارى : رأيته استلقى ونحن « بفربر » فى تصنيف كتاب التفسير وكان أتعب نفسه فى ذلك اليوم فى التخريج فقلت لـــه : انى سمعتك تقول : ما أتيت شيئا بغير علم فما الفائدة من الاســـتلقاء ؟ قال : أتعبت نفسى اليوم وهذا ثغر خشيت أن يحدث فيه حدث من أمر

العدو فأحببت أن أستريح وآخذ أهبة وان غافصنا العدو « فاجأنا على غرة » كان بنا حراك وقال : كان ابو عبد اللـــه يركب الى الرمى كثيرا فما أعلم فيما رأيته فى طول ما صحبته أخطأ سهمه الهدف الا مرتين ، بل كان يصيب فى كل ذلك ولا يسبق قال : ركبنا يومـــا الى الرمى ونحن بفربر فخرجنا الى الدرب الذى يؤدى الى الفرضة فجعلنا نرمى فأصاب سهم أبى عبد الله وتد القنطرة التى على النهر فانشق الوتد فلما رأى

(١) ترجمة البخارى المطبعة المنيرية ١٦ •
(٢) ترجمة البخارى المنيرية •

ذلك نزل عن دابته فأخرج السهم من الوتد وترك الرمى وقال لنا : أرجعوا . فرجعنا . فقال لى وهو يتنفس الصعداء : يا أبا جعفر لى اليك حاجة فقلت نعم . قال : تذهب الى صاحب القنطرة فتقول : انا أخللنا بالوتد ، فنحب أن يأذن لنا فى اقامة بدله ، أو تأخذ ثمنه وتجعلنا فى حل مما كان منا . وكان صاحب القنطرة حميد بن الأخضر فقال لى : ابلغ أبا عبدالله السلام وقل له : أنت فى حل مما كان منك ، فان جميع ملكى لك الفداء . فأبلغته الرسالة فتهلل وجهه وأظهر سرورا كثيرا . وقرأ ذلك اليوم للغرباء خمسمائة حديث وتصدق بثلاثمائة درهم (١) .

قضية البخارى مع محمد بن يحيى الذهلى

محمد بن يحيى الذهلى شيخ المحدثين بنيسابور ومن تلامذته البخارى ومسلم بن الحجاج ومجلسه فى نيسابور قبلة العلماء ومجمعهم العلمى وعندما قدم البخارى نيسابور كان محمد بن يحيى الذهلى من المرحبين به العارفين قدره فى علمه وصلاحه فأوصى الناس بالاستفادة من علم البخارى — وما كان يدور بخلده : أن مجلس البخارى سيحظى بالاقبال الفائق حتى ينصرف الناس الى مجلسه فيحصل الخلل فى مجلس الذهلى .

قال الحسن بن محمد بن جابر « قال لنا الذهلى لما ورد البخارى نيسابور . اذهبوا الى الرجل الصالح فاسمعوا منه فذهب الناس اليه وأقبلوا على السماع منه حتى ظهر الخلل فى مجلس الذهلى فحسده بعد ذلك وتكلم فيه » (٢) .

وكان أثر فتنة القول بخلق القرآن كما هو رأى القاضى أحمد بن أبى داود المعتزلى ومن معه من المعتزلة الذين ينكرون الصفات القديمة لله ومنها الكلام خوف تعدد القدماء على زعمهم ، وما دروا أن الممنوع هو تعدد الذوات لا الصفات لذات واحدة وكانت هذه الفتنة قد ظهرت

---

(١) تهذيب الاسماء ج ١ ص ٧٥ والطبقات ج ٢ ص ١٠ .
(٢) طبقات الشافعية ج ٢ ص ١١ لابن السبكى .

فى عهد المعتصم والواثق وأوائل عهد المتوكل وكانت مثار خلاف المعتزلة فى مقابل أهل السنة القائلين بقدم القرآن ــ كلام الله القديم معناه ومدلوله قديم وهو نوع من أنواع صفة الكلام النفسية القديمة القائمة بذاته تعالى ٠

وكان مع المعتزلة الحكام المتأثرون بهم وعلى رأسهم المأمون وامتحن فيها كبار أهل السنة ومنهم الامام أحمد بن حنبل واحمد بن نصر الخزاعى وأبو يعقوب البويطى واستعر أوار الفتنة حتى أدت الى مختلف أنواع التعذيب واستمرت من سنة ٢١٨ ــ ٢٣٤ هـ حتى أخمدها المتوكل وانتصر لأهل السنة ونهى عن الكلام فى هذه المسألة والنهى عن الكلام فى مشاكل علم الكلام هو شأن السلف فقد ضرب عمر بن الخطاب من يتكلم فى القدر وطرده وقال مالك للسائل عن معنى الاستواء : الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة وهذا هو منهج أحمد ابن حنبل كما هو منهج البخارى ٠

والقرآن كلام الله غير مخلوق كما عليه أهل السنة والحق هو ما ذهب اليه الامام البخارى ٠ وهناك فرق بين القرآن وبين القراءة كما يقول البخارى : يقال فلان حسن القراءة وردىء القراءة ولا يقال حسن القرآن ولا ردىء القرآن فالقديم القرآن وهذا (١) ما قال به السلف وأما التلفظ فذهب أهل السنة بل جميع الأمة الى أن التلفظ بالقرآن أى حرفية اللفظ وصوته الذى تنطقه ألسنتنا وتتلفظ به وتكتبه أيدينا حادث غير قديم ولا عبرة لما ينسب الى الحنابلة عن طريق جماعة من غلاة الحشوية من أنه قديم أيضا فهى رواية شاذة معارضة لصريح العقل ومنافية لصحيح النقل وما روى عن الامام أحمد رضى الله عنه من رميه من زعم ذلك بالاعتدال والكفر فعلى تسليم صحته وأنه ليس من وضع الحشوية التى انتسبت ظلما اليه وأساءت أبلغ الاساءة لمذهبه ليس محمولا على ظاهره بل المراد منه التنفير من التصريح به والزجر

---

(١) مقتبس عن كلام مقدمة البخارى لفضيلة الشيخ عبد الغنى بتصرف ص ٨٧ ٠

عن الخوض فيه خشية أن يتأثر ويجره ذلك الى القول بمذهب الاعتزال وانكار صفة الكلام القديمة أو خشية أن يتأول متأول ويحمله على مذهب المعتزلة ويشنع بقائله ويؤكد ذلك قول ابن السبكى فى ترجمة الحسين بن على الكرابيسى صاحب الشافعى (١) .

قيل للكرابيسى « ما تقوله فى القرآن قال كلام الله غير مخلوق فقال له السائل فما تقول فى لفظ القرآن ؟ فقال : لفظك به مخلوق فمضى السائل الى أحمد بن حنبل فشرح له ما جرى فقال هذه بدعة والذى عندنا أن أحمد بن حنبل ، رضى الله عنه أشار بقوله هذه بدعة الى الجواب عن مسألة التلفظ اذ ليست مما يعنى المرء وخوض المرء فيما لا يعنيه من الكلام بدعة فكان السكوت عن الكلام فيه أجمل وأولى . ولا يظن بأحمد رضى الله عنه أنه يدعى أن اللفظ الخارج من بين الشفتين قديم . ومقالة الحسين هذه قد نقل مثلها عن البخارى والحارس بن أسد المحاسبى ومحمد بن نصر المروزى وغيرهم فمن جراء فتنة خلق القرآن وما كان لها من أثر فى اهانة كثير من الصالحين تغالى بعض العامة واشتبه عليه فبدعوا كل من قال بحدوث ما يمس عوارض القرآن .

وقد استغل محمد بن يحيى الذهلى كراهية النفوس لمن يتكلم فى القرآن فأراد أن يوقع البخارى فى هذا الأمر حتى ينفر الناس عن مجلسه وينسبوه الى الاعتزال .

قال الحافظ بن عدى (٢) ذكر لى جماعة من المشايخ أن محمد بن اسماعيل لما ورد نيسابور واجتمع الناس عنده حسده بعض شيوخ الوقت فقال لأصحاب الحديث ان محمد بن اسماعيل يقول : لفظى بالقرآن مخلوق فلما حضر المجلس قام اليه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ماتقول فى اللفظ بالقرآن مخلوق هو ؟ أو غير مخلوق ؟ فأعرض عنه البخارى ولم يجبه ثلاثا . فألح عليه . فقال البخارى القرآن كلام الله

(١) طبقات الشافعية جـ ١ ص ٥٢ .
(٢) الطبقات ٢ ص ١١ ومقدمة الفتح جـ ٢ ص ٢٠٣ .

غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة فشغب الرجل وقال قد قال لفظى بالقرآن مخلوق وشغب الناس وتفرقوا عنه ، فالبخارى يلتزم لمذهب السلف فيتحرج عن الخوض صراحة فيما يثير الفتن ويعرض عن السائل ويعترض عليه مبينا له بأن الامتحان فى مثل هذا الأمر انما هو بدعة وهذا رأى السلف كالامام مالك والامام أحمد فالسكوت عند عدم الاحتياج اليه سنة ولكن عند الاحتياج اليه يضطر العالم لتبين الصواب وهذا هو ما رآه البخارى وقال محمد بن يوسف الفربرى (١) .

سمعت أبا عبد الله محمد بن اسماعيل يقول ان أفعال العباد مخلوقة فقد حدثنا على ابن عبد الله حدثنا مروان بن معاوية حدثنا أبو مالك عن ربعى بن حراش عن حذيفة قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله يصنع كل صانع وصنعته قال أبو عبد الله وسمعت عبيد الله بن سعيد يقول « مازلت أسمع أصحابنا يقولون أن أفعال العباد مخلوقة قال أبو عبد الله البخارى حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة فأما القرآن المتلو المبين المثبت فى المصاحف المسطور المكتوب الموعى فى القلوب فهو كلام الله غير مخلوق قال تعالى « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » زاد فى المقدمة قال : وقال اسحق بن راهوية أما الأوعية فمن يشك انها مخلوقة ؟ وقال فى الطبقات وقال البخارى يقال فلان حسن القراءة ورديء القراءة ولا يقال حسن القرآن ورديء القرآن وانما ينسب ذلك الى القرآن لأن القرآن كلام الرب والقراءة فعل العبد وليس لأحد أن يشرع فى أمر الله بغير علم زعم بعضهم أن القرآن بألفاظنا وألفاظنا به شيء واحد والتلاوة هى المتلو والقراءة هى المقروء فقيل له أن التلاوة فعل القارىء وعمل التالى فرجع وقال ظننتهما مصدرين فقيل له هلا أمسكت كما أمسك كثير من أصحابك ، ولو بعثت الى من كتب عنك واستردت ما أثبت وضربت عليه فزعم أن كيف يمكن هذا ؟ وقال قلت

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٣١ والطبقات ج ٢ ص ١١ ومقدمة الفتح ج ٢ ص ٢٠٣ .

ومضى فقلت له كيف جاز أن تقول فى الله شيئا لا يقوم به شرح وبيان اذا لم تميز بين التلاوة والمتلو ؟ فسكت اذ لم يجد عنده جوابا •

وقد حقق التاج السبكى فى طبقاته (١) موقف البخارى فقال كان البخارى على ما روى فيه ممن قال لفظى بالقرآن مخلوق وقال محمد ابن حسن الزهلى : من قال وزعم أن لفظى بالقرآن مخلوق فهو مبتدع وانما أراد محمد بن يحيى والعلم عند الله ما أراده أحمد بن حنبل من النهى عن الخوض فى هذا ولم يرد مخالفة البخارى وان خالفه وزعم أن لفظه الخارج من بين شفتيه المحدثتين قديم فقد باء بأمر عظيم والظن به خلاف ذلك وانما أراد هو وأحمد وغيرهم من الأئمة النهى عن الخوض فى مسائل الكلام • وكلام البخارى عندنا محمول على ذكر ذلك عند الاحتياج اليه فالكلام عند الاحتياج اليه واجب والسكوت عنه عند عدم الاحتياج اليه سنة فافهم ذلك ودع خرافات المخرفين واضرب صفحا عن تمويهات الضالين الذين يظنون أنهم محدثون وأنهم عند السنة واقفون وهم عنها مبعدون •

وكيف يظن بالبخارى أنه يذهب الى شىء من أقوال المعتزلة وقد صح عنه فيما رواه الفربرى وغيره أنه قال انى لأستجهل من لا يكفر الجهمية ؟ ولايرتاب المنصف فى أن محمد بن يحيى الذهلى لحقته آفة الحسد التى لم يسلم منها الا أهل العصمة وقد سأل بعضهم البخارى عما بينه وبين محمد بن يحيى فقال البخارى كم يعترى محمد بن يحيى الحسد فى العلم والعلم رزق الله يعطيه من يشاء •• ولقد أبان البخارى عن عظيم ذكائه حيث يقول وقد قال له أبو عمرو بن الخفاف أن الناس خاضوا فى قولك فقال : يا أبا عمرو من زعم أنى قلت لفظى بالقرآن مخلوق • فهو كذاب فانى لم أقله الا أنى قلت أفعال العباد مخلوقة قلت : تأمل كلامه ما أذكاه ومعناه والعلم عند الله انى لم أقل أن لفظى بالقرآن مخلوق لأن الكلام فى هذا خوض فى مسائل الكلام وصفات الله لا ينبغى الخوض فيها الا للضرورة ولكن قلت أفعال العباد مخلوقة وهى قاعدة مغنية عن تخصيص هذه المسألة بالذكر فان كل عاقل يعلم

(١) طبقات الشافعية ج ٢ ص ١٢ •

ان الفاظنا من جملة أفعالنا وأفعالنا مخلوقة ولقد أفصح بهذا المعنى فى رواية أخرى صحيحة عنه رواها حاتم بن أحمد الكندى فقال سمعت مسلم بن الحجاج فذكر الحكاية المتقدمة وفيها أن رجلا قام الى البخارى وسأله عن اللفظ بالقرآن ؟ فقال أفعالنا مخلوقة وألفاظنا من افعالنا وفى الحكاية انه وقع بين القوم اذ ذاك اختلاف على البخارى فقال بعضهم قال : لفظى بالقرآن مخلوق وقال آخرون لم يقل فلم يكن الانكار الا على من يتكلم فى القرآن وقد اضطر البخارى لأن يسكن الفتنة بخروجه من نيسابور الى بخارى وقد روى انه لما قام مسلم بن الحجاج وأحمد بن مسلمة من مجلس محمد بن يحيى يسبب البخارى . قال الذهلى لا يساكننى هذا الرجل فى البلد فخشى البخارى وسافر ، فنجد أن البخارى فى محنته هذه لم يقترف اثما وأن ما أثير حوله أنما هو وليد الحسد من النفوس البشرية ومحمد بن يحيى رحب بالبخارى عند قدومه ولكن الشيطان للانسان عدو مبين فحسده عندما رأى أنه احتل مكان الصدارة والتف حوله القوم وتركوا الذهلى فاستغل اثارة ألنفوس وحساسيتها بالنسبة لفتنة القرآن وتابعه على ذلك الذين انتقدهم البخارى وجرحهم بالتضعيف واستعملوا التشويش على العامة الذين لا يفرقون بين القرآن والقراءة وكان البخارى دقيقا فى تعبيره ملتزما مذهب السلف حيث أعرض عن السائل أولا ثم لما ألح عليه بين له أن السؤال بدعة وأجابه اجابة بينه لأن أفعال الرجال مخلوقة وألفاظنا من أفعالنا وكان فى اجابته الضمنية الدليل على صدق قوله ومع ذلك فقد آثر السفر الى بخارى حتى لا تكون فتنة وهو فى ذلك لم يخالف السلف بل كان على مذهب أستاذه الامام أحمد الذى يرى أن التبرع بالكلام فيما يثير الجدل بالنسبة الى صفات الله انما هو بدعة والقرآن عند محمد ابن اسماعيل هو كلام الله غير مخلوق قال محمد بن نعيم (١) سأل محمد ابن اسماعيل لما وقع فى شأنه ما وقع عن الايمان فقال قول وعمل يزيد وينقص والقرآن كلام الله غير مخلوق وأفضل الصحابة أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على وعلى هذا حبيت وعليه أموت وعليه أبعث ان شاء الله.

(١) التهذيب ج ٩ ص ٥٣ لابن حجر .

اعتـــزاز البخـــارى بعلمـــه

ومحنته مع أمير بخارى خالد بن أحمد الذهلى

ترك البخارى نيسابور ايثارا للسلامة وعدم الفتنة وذهب الى بلدته بخارى واستقبل أروع استقبال « فنصبت له القبـــاب على فرسخ من البلد واستقبله عامة أهل البلد حتى لم يبـــق مذكور ونثر عليه الدراهم والدنانير » (١) .

والتف حوله الناس فى مجلسه فى المســجد والمنزل والكل عنـــده سواء فى توجيه العناية والاستفادة من علمه ونشر سنة النبى صلى عليه وسلم فوجد فيه العلماء أنه الأمل المرجو والمرجع الأصيل فأقبلوا عليـــه للاستفادة منه ، ومثل البخارى فى اخلاصه للعلم وقوته يهمه أن يرضى نهم الناس ارضاء الله وأن يكون النفع عاما للجميع وليس لديه من الوقت فسحة للدرس الخاص وليس فى نفسه الـــدافع الى التقرب الى الأمير على حساب مصلحة الغير لأنه استمد جاهه واحترامه من سلطان العلم ، وشعور العالم برضاء ربه وسيره فى طريقه وتأدية رسالته يكسب العالم سعادة كاملة وعزا وسلطانا وكيانا يرى نفسه فى وضع كريم غير محتاج الا لله وحده ، فلما طلب أمير بخارى خالد بن أحمد ان يأتيـــه بكتبـــه حتى يسمعها له ولأولاده فى قصره خاصة رفض البخارى أن يســـتجيب لطلبه وقال « فى بيت العلم والحلم يؤتى » فأفهمه أن العلم يسعى اليه فراسله الأمير طالبا أن يعقد مجلسا لاولاده لا يحضره غيرهم ويحضر الأولاد اليه فامتنع أيضا وقال « لا يسعنى أن أخص بالسماع قوما دون آخرين » . قال أبو سعيد بكر بن منير البخارى « بعث الأمير خالد بـــن أحمد الذهلى والى بخارى وخليفة ابن طاهر الى محمد بن اســـماعيل أن احمل الى كتاب الجامع والتاريخ وغيرهما الأســـمع منك فقـــال محمد

---

(١) مقدمة الفتح ج ٢ ص ٢٠٥ .

ابن اسماعيل لرسوله قل له : انى لا أذل العلم ولا أحمله الى أبواب ، السلاطين فان كان لك الى شيء منه حاجة فأحضرنى فى مسجدى أو فى دارى وان لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعنى من الجلوس ليكون لى عذر عند الله يوم القيامة لأنى لا أكتم العلم لقول النبى صلى الله عليه وسلم من سئل عن علم فكتمه الجم بلجام من نار • فكان سبب الوحشة بينهما هذا (١) •

فأصر الأمير فى نفسه العداوة للبخارى وصار يتحين لـــه الفرص حتى وصله كتاب محمد بن يحيى الذهلى الذى لم يكتف بصرف النـــاس عن البخارى فى نيسابور فلم يقنع برحيله منها رغبة فى تسكين الفتنـــة فواصل عداءه للبخارى بكتاباته للولاة والعلماء بالتشنيع على البخارى بمسألة اللفظ ورميه بالاعتزال جذافا وبهتانا وممن كتب اليهم من العلماء أبو حاتم وأبو زرعة الرازى كما كتب الى الأمير خالد بن يحيى الذهلى نائب الطاهرية ببخارى فلما وصل الأمير كتاب الذهلى انتهز الفرصـــة للانتقام من البخـــــارى وأراد أن يصرف الناس عـــن السماع منه وكان البخارى فى جامع بخارى مجلس يجلس فيه لاملاء العلم اليهم وكانوا يعظمونه جد التعظيم ويكرمونه أشد التكريم فلم ينفذوا ارادة الأمير ورغبته واستمروا فى التلقى عنه فأمر الأمير عند ذلك بنفيه وساعده جاهه على اخراجه من بلده وقال أبو بكر بن أبى عمرو الحافظ وممن ســـاعد على ذلك خالد بن أبى الورقاء وغيره من أهل العلم ببخارى حتى تكلموا فى مذهبه فنفاه عن البلد فخرج رضى الله عنـــه الى بيكنـــد « بلده بين جيحون وبخارى على مرحلة منهـــا » ثم الى خرتنك قرية تبعـــد عنها فرسخين أو ثلاثة وعند خروجه دعا عليهم فقال : اللهم أرهم ماقصدونى به فى أنفسهم وأولادهم وأهلهم فأما خالد فلم يأت عليه الا أقل من شهر حتى ورد أمر الظاهرية بأن ينادى عليه فنودى عليـــه وهـــو على أتان وأشخص على أكاف ثم صار عاقبة أمره الى ما قد اشـــتهر وشـــاع من

(١) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٣٢ طبقات الشافعية ج ٢ ص ١٤ مقدمة البخارى للشـــيخ عبد الغنى ص ٩٢ التهذيب لابن حجر ج ٩ ص ٥٢ .

من سجنه فى بغداد حتى أن مات ولم يبق أحد ممن ساعده فى اخراج البخارى الا ابتلى شديد البلاء وأما حديث ابن أبى الورقاء فانه ابتلى بأهله فرأى منهم ما يجل عن الوصف وأما فلان أحد القوم وسماه فانه ابتلى بأولاده وأراه الله منهم البلايا (١) والبخارى فى موقفه هذا يمثل عزة العلماء وتوكلهم على الله واستمدادهم القوة والعزة من الله وحده وقد وصل بطهارته وعلمه وصفاته الخلقية الى درجة يدعو الله فيستجيب له •

مكانة البخارى فى عصره

ان أبا عبد الله البخارى بعلمه وعقله وخلقه ودينه وصل الى درجة رفيعة فى الكمال الانسانى أجبرت الدنيا بأن تتطلع اليه وأنطقت الألسن والقلوب بالثناء عليه •

ورغم نباهة شأن شيوخه وأقرانه وعلماء عصره الزاهر بالعلم فانه استطاع أن يصل فى سلم الارتقاء الى درجات عالية تصعب على أفذاذ العلماء •

وقد تتابعت الروايات فى نباهة شأنه وتقدمه والشهادة له بالامامة فى العلم • واكتظت كتب الطبقات بالاسهاب فى هذا المعنى اسهابا لم يتوفر فى أى ترجمة من تراجم العلماء •

والمقدرون له الشاهدون بفضله على حد تعبير الامام النووى هم الأعلام أئمة المسلمين أولو الورع والدين والحفاظ النقاد المتقون الذين لا يجازفون بالعبارات بل يتأملونها ويحررونها ويحافظون على صيانتها أشد المحافظات •

والناظر يجد أن هذه الروايات انما تمثل اجماع المسلمين فى عصر البخارى اذ هى تشع من مراكز اشعاع العلوم بالعالم الاسلامى ولم يقتصر ذلك على أهل بلد بعينه وقد نسق الخطيب البغدادى هذه

---

(١) التهذيب حـ ٩ ص ٥٢ لابن حجر •

الروايات وقسمها بحسب أصحابها الى فصـــول ممتعـــة تبين أن مكانة البخارى مكانة عالية قد طبقت الآفـــاق وان علمـــه أشرق على دنيـــا الاسلام فى عصره وان له الأثر الحسن فى كل بلد بما تركه فيه من علم نافع وخلق كريم وذكر هذه الروايات الذهبى فى ســـير أعـــلام النبلاء وذكرها باسهاب الخطيب البغدادى تحت العناوين الآتيـــة (وصـــف البصريين ومدحهم للبخارى) (وصف أهل الحجاز والكوفة) (ذكـــر البغدادين فضله) (قول أهل الرى فيه) •

(ما حفظ عن أهل خراسان وما وراء النهر من القول فيه)

وحسبى أن أمر سريعا قانعا بذكر نمـــاذج من تلك التقريرات لكى يعطينا فكرة واضحة عن مكانة البخارى فى عصره وتدلنا على أنه نشـــأ للعلم عظيما مقدرا منذ وجد وهـــذا انما يثبت فى النفـــوس قيمة مروياته ويبين لنا جليل عمله وفى طبيعة هـــذه النصـــوص القـــوة المعبرة التى لا تحتاج الى تعليق •

عن حاشد بن اسماعيل يقول كنت بالبصرة فسمعت قدوم محمد بن اسماعيل فلما قدم قال محمد بن يســـار : دخل اليوم سيد الفقهـــاء • ويقول بندار محمد بن بشار : ما قدم علينا مثل محمد بن اســـماعيل• وعن أبى يوسف بن ريان قال : سمعت محمد بن اسماعيل يقول كان على ابن المدينى يسألنى عن شيوخ خراسان فكنت أذكر له محمد بن ســـلام فلا يعرفه الى أن قال لى يوما يا أبا عبد الله : كل من أثنيت عليه فهـــو عندنا الرضا ــ ويقول البخارى ما تصاغرت نفسى عند أحد الا عنـــــد على بن المدينى فيقول على زروا قوله هو ما رأى مثل نفسه • وبلغ من تقدير القوم له وثقتهم به أنه الجامع الحديث ، أن يقول عمرو بن على حديث لا يعرفه محمد بن اسماعيل ليس بحديث • ويقـــول أبو معشر حمدوية بن الخطـــاب لما قدم أبو عبد الله محمد بن اسماعيل من العراق قدمته الأخيرة تلقاه من تلقاه من الناس وازدحموا عليه وبالغوا فى بره• فقيل له فى ذلك وفيما كان من كرامة الناس وبرهم فقال كيف ولو رأيتم يوم دخولنا البصرة •

وقد كان معلوما للقوم أن الحديث اذا انتخبه محمد بن اسماعيل اتسم بالصحة وأصبح ذلك شهادة بصحته •

عن أبى حاتم قال : سمعت محمد بن اسماعيل يقـــول « كان اسماعيل بن أبى أويس اذا انتخبت من كتابه نسـخ تلك الأحاديث لنفسه وقال هذه أحاديث انتخبها محمد بن اسماعيل من حديثى • وقال أبو حاتم : سمعت حاشد بن عبد الله يقول • قال لى أبو مصعب أحمد ابن أبى بكر المدينى : محمد بن اسماعيل أفقه عندنا وأبصر من ابن حنبل فقال له رجل من جلسائه جاوزت الحد فقال أبو مصعب لـــو أدركت مالكا ونظرت الى وجهه ووجه محمد بن اسماعيل لقلت كلاهما واحد فى الفقه والحديث • وهذه الرواية انما تعنى الشبه فى الفقـه والحديث والا فملامح الوجه والجسم لا تفيد تعظيما أو تكريما •

وعن محمود بن النصر أبى سهل الشاقعى يقول : دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة وجالست علماءها فكلما جرى ذكر محمـد ابن اسماعيل فضلوه على أنفسهم • وعن عبد الله بن أحمد ابن حنبـل عن أبيه الامام أحمد أنه قال : ما أخرجت خراسان مثـل محمد بن اسماعيل ويقول يعقوب بن ابراهيم الدورقى محمد بن اسماعيل فقيه هذه الأمة • وعن موسى بن هارون الحمال ببغداد يقول عندى لو أن أهل الاسلام اجتمعوا على أن ينتصبوا مثل محمد بن اسماعيل آخـر لما قدروا عليه ـــ وعن أبى العباس محمد بن عبد الرحمن الفقيه يقول كتبت أهل بغداد الى محمد بن اسماعيل •

المســـلمون بخـير ما بقيـت لهـــم
وليس بعـــــدك خـــير حين تفتقـد

وعن وراقة سمعت محمد بن اسماعيل يقول : قال لى محمـد بن سلام أنظر فى كتبى فما وجدت فيها من خطأ فأضرب عليه كى لا أرويـه ففعلت ذلك وكان محمد بن سلام كتب عند الأحاديث التى أحكمهـا محمد بن اسماعيل رضى الفتى وعند الأحاديث الضعيفة لم يرض الفتى

فقال له بعض أصحابه من هذا الفتى ؟ فقال هو الذى ليس مثله محمد ابن اسماعيل ــ والمقصود ليس مثله فى عصره طبعا •

وبلغ من حب القوم لمحمد بن اسماعيل أنهم يتمنون أن يفدوه بأنفسهم حفظا للعلم • عن يحيى بن جعفر يقول لو قدرت أن أزيد فى عمر محمد بن اسماعيل لفعلت فان موتى يكون موت رجل واحد وموت محمد بن اسماعيل ذهاب العلم • ويقول فيه رجاء بن المرجى محمد ابن اسماعيل آية من آيات الله يمشى على الأرض وعن أبى عيسى الترمذىتلميذ البخارىصاحب الصحيح يقول : كان محمد بن اسماعيل عند بن منير فلما قام من عنده قال : يا أبا عبد الله جعلك الله زين هذه الأمة • قال أبو عيسى فاستجيب له فيه وعن الترمذى أيضا قال لم أر أحدا بالعراق ولا بخراسان فى معنى العلل والتاريخ والأسانيدأعلم من محمد بن اسماعيل ويقول له تلميذه مسلم بن الحجاج لايبغضك الا حاسد وأشهد أن ليس فى الدنيا مثلك وجاء مرة اليه فقبله بينعينيه وقال دعنى أقبل رجلك يا أستاذ الأساتذة وسيد المحدثين وياطبيب الحديث فىعلله وعن حاشد بن اسماعيليقول : رأيت اسحاق بن راهوية جالسا على السرير ومحمد بن اسماعيل معه فأنكر عليه محمد بن اسماعيل شيئا فرجع الى قول محمد وقال اسحاق بن راهوية يا معشر أصحاب الحديث انظروا الى هذا الشاب واكتبوا عنه فانه لو كان فى زمن الحسن البصرى لاحتاج اليه الناس لمعرفته للحديث والفقه ــ وعن أبى بكر محمد بن اسحاق يقول : ما رأيت تحت أديم هذه السماء أعلم بالحديث من محمد بن اسماعيل البخارى ــ وعن عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندى يقول رأيت العلماء بالحرمين والحجاز والشام والعراقيين فما رأيت فيهم أجمع من أبى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ــ وعن عبد المؤمن بن خلف التيمى قال : سمعت الحسن بنمحمد يقول : مارأيت مثل محمد بن اسماعيل ومسلم الحافظ لم يكن يبلغ محمد بن اسماعيل ورأيت أبا زرعة وأبا حاتم يستمعون الى محمد بن اسماعيل أى شىء

يقول يجلسون بجنبه فذكرت له قصة محمد بن يحيى فقـــال ماله ولمحمد ابن اسماعيل .

كان محمد بن اسماعيل أمة من الأمم وكان أعلم من محمد بن يحيى بكذا وكذا وكان محمد بن اسماعيل دينا فاضلا يحسن كل شيء .

ولهذه المكانة السامية المتأصلة فى نفوس القوم كانوا يحرصون على علمه ويجتمع الألوف فى مجلسه يتزاحمون عليه للانتفـــاع منه حتى فى الطرقات يعدون خلفه انتظارا لمجلسه وكانت له هذه المكانة المتـــازة منذ مقتبل حياته يقول حاشد بن اسماعيل كان أهل المعرفة من أهل البصرة يعدون خلف البخارى فى طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه ويجلسوه فى بعض الطريق ويجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنـــه وكان البخارى اذ ذاك شابا لم يخرج شعر وجهه . وقال قتيبة بن سعيد جالست الفقهاء والزهاد والعبـــاد فما رأيت منذ عقلت مثل محمـــد ابن اسماعيل البخارى وهو فى زمانه كعمر فى الصحابة ــ وقال محمد بن يوسف الهمدانى وقد سئل قتيبة عن طلاق السكران فدخل محمـــد بن اسماعيل البخارى وقال قتيبة للسائل هذا أحمد بن حنبل واسحاق بـــن راهوية وعلى بن المدينى قد ساقهم الله اليك وأشار الى البخارى ، وعن ابراهيم بن سلام قال ان الرتوت « الرؤساء » من أصحاب الحديث مثل سعيد بن مريم المصرى ونعيم بن حمـــاد الحميدى والحجاج بن منهال واسماعيل بن أويس والعدنى والحسن الخلال ومحمد بن ميمون صاحب ابن عيينة ومحمد العلاء والأشج وابراهيم بن المنذر الحزامى وابراهيم ابن موسى الفراء كلهم كانوا يهابون محمد بن اسماعيل ويقضون له على أنفسهم بالنظر والمعرفة وذكر أن الحاكم أبو عبد الله النيسابورى قال رحمه الله تعالى البخارى هو امام أهل الحديث بلا خلاف بين أئمة النقل وقال عبد الله بن محمد بن سعيد بن جعفر سمعت العلماء بمصر يقولون ما فى الدنيا مثل محمد بن اسماعيل فى المعرفة والصلاح ثم قال عبد الله وأنا أقول قولهم ــ وقال الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن ســـعيد ابن عقدة لو أن رجلا كتب ثلاثين ألف حديث لما استغنى عن تاريخ محمد

ابن اسماعيل ويقول الحافظ بن حجر فى نهاية فصل الثناء على البخارى ولو فتحت باب ثناء الأمة عليه ممن تأخر عن عصره لفنى القرطاس ونفذت الأنفاس فذاك بحر لا ساحل له •

وبعد ما تقدم من ثناء مشايخه عليه لا يحتاج الى حكاية من تأخر لأن أولئك أثنوا بما شاهدوا ووصفوا بما عملوا بخلاف من بعدهم فأن ثناءهم ووصفهم مبنى على الاعتماد على ما نقل اليهم وبين المقامين فرق ظاهر وليس العيان كالخبر •

obeikandl.com